الفصل الرابع

الأصالة و التأصيل
لعناصر التخطيط الحضري
في
المستقرات البشرية العراقية الأولى

مقدمة
في الأصالة و التأصيل

إن ما نعنيه بأصالة[1] الأشياء هي حالة الخلق والإبداع الممتدة وظيفياً وعضوياً للمنجزات المادية، والفكرية التي كانت قد أوجدتها بأحكام متطلبات حياة الإنسان في مرحلة حضارية معينة، وحققت ذلك التنبؤ الذي ارتضاه الإنسان عبر تلك الحقبة التي قد يستمر بقاؤها أو يندرس وجودها، فإذا ما استمرت أو عادت فاعليتها في فترة لاحقة عدت أصيلة. أن تأصيل تلك المنجزات يعني إعادة ما كان أصيلاً، لذلك فإن البحث عن أصالة الخصائص وعناصر الفكر التخطيطي في المستقرات البشرية الطلائعية في العراق القديم (قرى أولى أو مدن طلائعية) تعني البحث عن الحكمة أو الجذور التي دفعت هذا الفكر لخلق أو تبني العناصر الوظيفية التي عكستها مخططات تلك المستقرات معبراً عنها بالمؤشرات أو الخصائص لمناطق الفعاليات الوظيفية التي استمدت وجودها أو مقوماتها من حضارتين هما:

أولاً: حضارة القرية:

إن القرية عرفت المعالم الجوهرية التي كونت منها المدينة فيما بعد، فالبيت والمعبد وصهريج الماء والطريق والسوق كلها عناصر قد نشأت في القرية، وهي مظاهر أساسية ظلت تنتظر قيام المدينة الأولى لتتطور قدماً في كنف تكوينها الأكثر تعقيداً بعد أن ركزت مكانتها، وأهميتها المستوطنين حتى وإن توقف استخدامها في فترات معينة، إذ وجد أن كثيراً من المدن السومرية لم تستطع تجاوز حضارة القرية الباكرة لأنها بقيت الأساس الذي انبثقت منه حضارة المدينة بعد أن شهدت القرية تغييرات شاملة، بدأت بزيادة السكان، والمساحة المخصصة لاستعمالاتهم ومتطلبات حياتهم المادية والفكرية إلى أن انتهت بالتشكيلات، والاتجاهات التي أخذتها تلك المستوطنات في بناء أهدافها الاقتصادية والاجتماعية، ونتج عنها مجتمعات محلية متعاونة، ونشيطة ترتكز سلطة إدارتها وتنظيم شؤونها بيد زعيم روحي تحول إلى ملك سياسي أضفت عليه صفاة الألوهية الجرأة والمهارة في تنظيم جهود المجتمع للاستقرار، والسيطرة على الفيضانات، وإصلاح أضرار العواصف، وتخزين المياه،

١- الأصالة تعني الإحكام فأصيل الرأي أي محكم الرأي وإن أصيل الأشياء هو ذو أصالة: أما التأصيل هو إعادة ما كان أصيلاً، عن (مختار الصحاح للإمام الرازي ص 18).

وإعادة شق وجه الأرض، وإنشاء شبكات عظيمة من القنوات المائية وملء تلك المستقرات بما توفر من الطاقات البشرية لاستخدامها في مشروعات اجتماعية، إضافة إلى حماية نفسها مما يلحق بها من سكان المراكز الاستيطانية الأخرى. فأصبحت تلك المستوطنات مركزاً للقوة وعبرت عنها وحدتها المكانية والاجتماعية، وانتهت بشكلها المحصن بالأسوار والخنادق. ولذلك كانت جميع هذه العناصر (وما نتج عنها من خصائص حتى وإن اتبعتها المدينة عندما مارس فكر الإنسان العراقي القديم اختبارها وتخطيطها) تعد عناصر أصيلة في تخطيط المستقرات البشرية العراقية الأولى، وإن إعادة تطبيقها في تخطيط المدن الأولى يعد تأصيلاً لها.

ثانياً: من حضارة المدينة:

بفعل عوامل نشأة المدن السومرية الطلائعية والخصائص التي تولدت في ضوء تطورها التاريخي الذي يحكم مهماتها الأصلية أو المهمات التي تولدت عن وجودها عبر المراحل المورفولوجية لتلك المدن التي لم يكن بمقدورها أن تؤدي وظائفها إلا في داخلها لأنها ثمرة روابطها التاريخية وتكوينها الفريد في تشابكاته وتعقيداته.

ولذلك كان استطراد عناصر البناء الوظيفي وخصائص الفكر التخطيطي للمدن السومرية الطلائعية يشكل إلهاماً وتراكماً حقيقياً للعناصر المؤصلة عن القرية، أو تلك التي أنتجها الفكر التخطيطي السومري بشكل أصيل عكس أصالة فكرة المدينة نفسها.

وفيما يلي تشخيصاً لأهم تلك العناصر التي ظهرت عبر المراحل الحضارية القديمة وصولاً إلى فترة المدن الطلائع التي كانت ولادتها بداية الحياة المدنية.

عناصر الأصالة
في المستوطنات القروية الأولى

عن طريق استعراض المسيرة الحضارية الطويلة للقرية العراقية الأولى يمكن تشخيص أهم العناصر، والمعالم الجوهرية التي تبنتها حضارة القرية، والتي تأصل معظمها في مسيرة المدن الطلائعية.

ونظراً لكثرة تلك العناصر سيتم تناولها عبر مجموعة من الخصائص التي تمثل الفكر التخطيطي الأول في بناء المستقرات العراقية وهي:

أولاً: أصالة اختيار الموقع والموضع الملائم لإقامة المستوطنات:

والذي كان له الأثر الكبير في توزيع وانتشار المراكز القروية، والحضرية في أرجاء العراق القديم، وقد تجلى حسن الاختيار في مواقع المستوطنات في المراحل الحضارية الأولى، عندما كان اعتماد تلك المستوطنات وأساسها الاقتصادي على الزراعة، وتربية الحيوان، لذلك انتشرت مواقع وقرى عصور ما قبل التاريخ في المناطق الجغرافية التي تتوفر فيها مراعي خصبة، وحيوانات صيد، وأراضي صالحة للزراعة، والتي كانت في معظم الأحيان تمتد عبر المناطق المتاخمة لحدود المنطقة الجبلية في شمال وشمال شرق العراق. شعر المواطنون هناك بأهمية تلك المواقع لتحديد كثير من مواقعها لإقامة وحداتهم السكنية حيث تتوفر المستلزمات، والمقومات المادية والبشرية التي كونت مسيرتها الحضارية. ومن تلك المواقع إدراك الإنسان الأهمية الطبيعية للعناصر الطبوغرافية لتوفير الأمن وحماية المقيمين من أخطار الكائنات الحية عن طريق اتخاذه موضع مستقراته بشكل غير اعتباطي، حيث اتخذ من حافات الجبال مكاناً يصعب الوصول إليه، مما يدل على تخطيط سابق ووعي كامل لما يقدمه هذا المكان من دفاع، وحماية طبيعية للمستوطنين مقارنة بمحدودية الإمكانيات الذاتية والطبيعية المتوفرة التي لا تسمح بتشييد استحكامات ذاتية حول وحداتهم السكنية، أو منشآت دفاعية متطورة حول مستوطناتهم (ومن أقدم النماذج الأصيلة) الخاصة باستغلال الموضع

الجغرافي بما فيه من مقومات طبيعية، ووسائل أمنية، هو اختيار موقع (نمريك)[1] عند ذلك الموضع الذي اتخذه إنسان العراق القديم عند الحافة الجنوبية للجبال العالية التي يقطعها نهر دجلة وكون عن طريقها وعبر العصور عدد من الشرفات والمصاطب النهرية، حيث صار مستوطن نمريك يقع عند الشرفة الثانية (الشكل 3) التي بلغ عرضها بحدود 4-6كم وترتفع 340-345م فوق مستوى سطح البحر، بينما ترتفع 105-1000م فوق مستوى نهر دجلة[2]، حيث تكثر تفرعاته في تلك المنطقة بشكل وديان يقطع أحدهما المصطبة الثانية التي تقع عليها نمريك فتقسمها إلى شطرين لتبدو وكأنها لسان صخري يمتد بشكل شبه جزيرة يطوقها وادي عميق من الشرق والغرب والجنوب، وتتخذ مستوطنة نمريك موقعها الحصين في هذا المكان في الموضع الذي يبلغ عرضه 4م والذي بدا محاطاً بهذا الوادي ذو الحافات الحادة التي يصعب تسلقها للوصول إلى ذلك المكان، عدا جهته الشمالية الصغيرة والضيقة نسبياً التي كانت متصلة بالأرض السهلية، وكان يستخدمها المستوطنون للنزول وتشديد الاستحكامات الدفاعية عند اللزوم.

ولا تختلف قرية جرمو التي تعود إلى الألف السابع في حسن اختيار موقعها الجغرافي كقرية زراعية حيث أمن لها موضعها خصائص طوبوغرافية لممارسة الزراعة، وتربية الحيوان، وتحقيق الأمن الغذائي، والدفاعي لها.

عندما اختيرت عند حافة وادي جام كور الذي ينخفض عمقه عن المستوطنة بانحدار يصل إلى 90م في الوقت الذي ترتفع المستوطنة عن سطح البحر 800م تقريباً، ففي ذلك الموقع اتخذت قرية جرمو موضعها الذي تبلغ مساحته (9) آلاف م^2. لم يبقى منها سوى ثلث المساحة التي وجدت فيها زهاء 25-30 داراً وقدر عدد سكانها نحو 150 نسمة كانوا مستفيدين مما في ذلك الموضع من خصائص طوبوغرافية. لتستمر خاصية اختيار الموقع الملائم لإقامة المستوطنات عبر العصور والأدوار مؤكدة أصالة تلك الخاصية، فهذه مستوطنة تل الصوان أدرك مستوطنيها كيفية الاستفادة من موقعها عند نهر دجلة وانحداره عن النهر، واتجاه هذا الانحدار للاستفادة من النهر لأغراض الزراعة والتحصين الطبيعي من الجهة الشمالية والغربية.

وكذلك مستوطنة باني هلك في عصر حلف، ومستوطنات حوض نهر ديالى في منتصف الألف السادس مثل تل عباد، وتل عباس، وتل الرشيد، وتل صكر وغيرها من القرى التي عني باختيار موقعها الجغرافي لتكتمل فيها عناصر حسن الاختيار، ويتكامل وجودها في قرى السهل الجنوبي، حيث مواقع أريدو، أور، الوركاء التي سبق وصف خصائصها الطبيعية والطبوغرافية، حيث عكس التفاعل

١- الأعظمي محمد طه - مصدر سابق ص 119.

٢- المصدر السابق ص 120.

معها طبيعة التفاعل الجاد والذكي لمجتمع صار نموذجاً للمجتمعات النشيطة، والمتعاونة التي عرفت كيف تؤصل خواص حسن اختيار مواضع مستقراتها التي ورثتها من القرى السابقة لمستوطناتها ضمن مواقع السهل الرسوبي الذي عجل من نضوجها، وتحولها إلى مدن تضافرت في نشأتها مجموعة من العوامل الطبيعية والاقتصادية وغيرها من العوامل التي وفرتها طبيعة موضعها ضمن المواقع التي اختيرت فيها.

ثانياً: أصالة المحاولات التصميمية في القرى العراقية الأولى:

حيث تتابع ظهور أولى الأشكال المعمارية السكنية كالآتي:

1- إن أولى المحاولات التصميمية للإنسان العراقي القديم في تشكل مأواه في القرية الأولى اعتمدت على استخدام التخطيط الدائري الذي ظهر بمخطط مساكن طبقات جرمو الأولى، ثم في قرية بارم تبة والأربجية، واستمر حتى حاصر تيه كورا إرثاً عن المحاولات التي شهدتها مساكن المواقع المكشوفة في نمريك وزاوي جمي وكريم شهر وملفعات. وقد تميز هذا التصميم بإعطائه أشكالاً هندسية بسيطة طبيعية وعفوية رغم اتصافه بعدم توجه باتجاه الزوايا الأربعة الرئيسة الاتجاهية، وبإمكانيات احتوائية محدودة، وبمرونة قليلة تمثلت في عدم قدرته على التوسع أمام احتياجات الإنسان المتزايدة. كذلك أعطى ذلك التصميم توجيهاً متوازناً نحو الخارج بشكل غير محوري فلم تتطلب اللجوء إلى اختيارات متعددة من التوجه وفي تلك الأشكال تحقق:

أ- أولى أشكال الحماية الذاتية نظراً لبناء الوحدات السكنية بشكل دائري أو بيضوي.

ب- ظهور الطوف (شبيه باللبن) في بناء الجدران والوحدات السكنية ككل وبأشكال وقياسات مختلفة.

ج- استخدام الركائز كدعائم في تقوية الجدران وتثبيتها.

د- استخدام الطلاء الطيني للجدران وإكساء الأرضيات بطبقة من الطين.

هـ- تبليط الأرض بقطع من الحجارة والحصى.

و- استخدام أغصان الأشجار والقصب في التسقيف.

2- إن احتياجات الإنسان العراقي القديم المستمرة في قراه الأولى لوظائف جديدة، والرغبة للتوسع حفزته للتغلب على الوحدات الدائرية غير القابلة للتوسع لعدم تقبلها هندسياً للتعاقب والتكرار، فكانت الأشكال ذات الزوايا شبه القائمة (المربعة والمستطيلة تقريباً) كوحدات قابلة للتكرار وذات مرونة عالية للاستجابة

إلى التطورات الوظيفية، وقد ظهرت تلك الأشكال في الطبقات التالية لقرية جرمو، وفي قرية حسونة النموذجية وتكامل وجودها وانتظامها في قرية تل الصوان عندما عرفت منازلها بالشكل المعماري ذو التصميم الشبيه بحرف T.

3- ساعدت إمكانيات التجمع المرن للوحدات المربعة والمستطيلة على تشكيل السكن المتعدد الفضاءات الذي أبرز التخصص الوظيفي للفضاءات المتعددة، كما ظهر في مساكن جرمو التي خففت الاحتواء، والحماية على مستوى الوحدة الواحدة أو مجموعة الوحدات وصولاً إلى مستوى المستوطن ككل.

4- نتيجة للوضع التنظيمي المضطرب ظهرت الحاجة إلى تحقيق الحماية، وترسيخ مفهوم الدفاع الذاتي فانغلقت الوحدات السكنية نحو الخارج إلا عبر فتحة المدخل، وتوجهت داخلياً لتحقيق أعلى قدر ممكن من الحماية والخصوصية، وأصبح الفناء الوسطي يمثل البؤرة التصميمية لهيكل الوحدات السكنية.

ويمكن تتبع أصالة هذه الخصائص في العناصر الوظيفية التي شهدتها القرى الأولى حيث ظهر:

1- في قرية جرمو:

أ- الشكل المستطيل في بناء الوحدات السكنية التي نظم مجموعة من الفضاءات بنيت وجدرانها من الطين المشيد فوق أسس من الحجارة الطبيعية.

ب- ظهرت أولى المعالجات التصميمية للعناصر البيئية في سقوف بنائها.

2- وفي قرية حسونة:

أ- ظهر لأول مرة نظام الفناء المفتوح (الحوش coyrt yard) الذي مثل أول الأصول الشرقية في بناء الوحدة السكنية.

ب- ظهور نظام الدكات والارتفعات التي استخدمت بشكل ملائم داخل البيوت.

ج- استخدام محاجر في الأبواب يسمح بحركتها على مصراعيها.

3- وفي قرية تل الصوان:

تكاملت جميع العناصر التي شهدتها قرى المنطقة الشمالية وأعطت الخصائص العمرانية الاقتصادية والاجتماعية المتكاملة التي سيأتي ذكرها كعناصر أصيلة في فقرات مختلفة.

4- وفي قرية الأربجية:

ظهر لأول مرة نظام القباب المعقود في البناء الذي عرف بالشولوي.

5- وفي قرى السهل الجنوبي:

ظهرت الهياكل والأشكال المعمارية التي تعبر عن وظائف جديدة لم يكن يألفها القسم الشمالي في العراق تمثلت في:

أ- ظهور أبنية المعابد التي اتخذت كأماكن لأداء الوظيفية الدينية التي عرفت أنماطها، وتطورها المعماري في أدوار العبيد بأريدو ثم دور الوركاء. وفي تلك المعابد ظهر نظام التجاويف الذي شكل وجوده أساس المحراب الذي تأصل كعنصر بنائي في الكنائس المسيحية والمساجد الإسلامية.

ب- ظهر تشكل التجمع السكني حول ساحات ومناطق وسطية (مركزية كالمعابد) في كل من أريدو وأور وتيه كورا في الشمال، إضافة إلى الشكل العفوي لتوزيع الوظيفة السكنية في مناطق القرى الأولى.

ج- كانت معظم الوحدات المعمارية وبالذات السكنية تبنى من القصب المسيج بالطين الذي تأصل وجوده اليوم بما يشبه بناء المضايف الجنوبية في منطقة الأهوار.

ثالثاً: أصالة استخدام مواد البناء المحلية في تنفيذ الوحدات المعمارية القرى الأولى:

وقد تمثلت هذه المواد في:

1- استخدام الطين كمادة أولية في تكوين الطوف (الشبيه باللبن) الذي بنيت بواسطته الوحدات السكنية الأولى، وكذلك استخدامه كطلاء للجدارن وإكساء الأرضيات. وقد حصل هذا الاستخدام في قرية جرمو وحسونة. أما في تل الصوان فقد ظهر استخدام الطين المقوى بالتبن كطلاء للجدران.

2- استخدام الحجارة في تشييد أسس الجدران لمنازل قرية جرمو وحسونة والقرى الممتدة بينهما.

3- استخدام جذوع الأشجار والخشب والقصب في تسقيف المنازل سواء في قرية جرمو أو حسونة أو تل الصوان.

4- ظهر استخدام اللبن كمادة بنائية ذات أبعاد منتظمة في بناء الوحدة السكنية، والمرافق الأخرى لأول مرة في قرية تل الصوان.

5- استخدام الجص لأول مرة في تل الصوان كمادة طلائية لجدران المنازل والوحدات العمرانية الأولى.

6- ظهر في تل الصوان استخدام القير لأول مرة في إكساء سطوح الأبنية فوق الحصران، وكمادة عازلة في المناطق التي تصلها الرطوبة.

7- ظهر لأول مرة استخدام الأجر الطيني المشوي الشبيه بالطابوق في مباني قرية الأربجية في عصر حلف ثم شاع استخدامه في مباني قرى السهل الجنوبي أريدو وأور والوركاء سواء في بناء معابدها أو وحداتها السكنية.

رابعاً: أصالة المعالجات البيئية في عمارة الوحدات السكنية:

ظهرت هذه الخاصية لأول مرة في قرية جرمو عندما جعلت سطوح سقوف منازلها مائلة من جهة واحدة أو جهتين لمواجهة سقوط الأمطار والرياح، حيث تسمح بانحدارها إلى جوانب المنزل. ثم اعتمدت مثل هذه المعالجات في قرية حسونة وتل الصوان التي لم يكن ظهور القير كمادة أولية في بناء السقوف إلا كإحدى وسائل المعالجات البيئية أيضاً. وعلى الرغم من أن الفناء الداخلي جاء بثورة تصميمية لهيكل الوحدات السكنية التي تنشد الحماية والخصوصية، إلا أنه أصبح رئتها الداخلية التي تزودها بالإنارة الطبيعية، والتهوية، والمحافظة على درجات الحرارة. إضافة إلى الخاصية البيئية التي حققتها مواقع، ومواضع تلك المستقرات، والتي صارت أكثر وضوحاً في مواضع المستقرات الجنوبية التي اتخذت من اتجاهات مجاري الأنهار، وهبوب الرياح عاملاً مهماً في معالجاتها البيئية واختيار مواقعها الطبيعية.

خامساً: أصالة أنظمة الطرق:

لقد ظهر أول نظام للطرق المخطط لها في قرية تل الصوان، عندما اعتمد الشكل T في نظم الوحدات السكنية ويسمح بخلق المساحات البيئية التي استخدمت كممرات وأزقة تصل إلى الفضاءات الأوسع التي مثلت الشوارع الرئيسة. وقد وجد أن مثل تلك الأزقة رصفت بالحجارة، مما يدل على استخدامها لغرض المرور.

وقد اتضح مثل هذا النظام في قرية الأربجية التي تعود إلى عصر حلف، حيث الشوارع المرصوفة بالحجارة الموصلة بين المنازل، وكان وجودها يشير إلى نوع من الخدمة العامة للمستوطنين.

سادساً: أصالة معالم البناء الوظيفي في مخططات القرى العراقية الأولى:

برزت معالم البناء الوظيفي لأول مرة في مستوطنة نمريك، كما دل على ذلك المخطط الأول لإعادة تركيب وظائف ذلك المستوطن الذي بدا واضحاً فيه احتلال الوظيفة السكنية للمنطقة المركزية، حيث بيوتها الدائرية والبيضوية المغلقة، ثم منطقة المقبرة الجماعية ومناطق ردم عظام الحيوانات. غير أن المعالم الأكثر وضوحاً ظهرت في قرية تل الصوان عندما ظهر السور لتحقيق الوظيفة الدفاعية الذي كان وجوده قد تحقق لأول مرة في قرية الأربجية، كذلك ظهرت في تل الصوان مناطق الخزن التي انتشرت فيها أبنية خاصة لخزن الحبوب كحالة متطورة عن مخازن أم الدباغة.

ثم المنطقة السكنية التي احتلت معظم مساحة المستوطنة، وانتشرت بينها الساحات المكشوفة، والفضاءات المندرجة التي كانت ترتبط بشبكة متدرجة من نظام الطرق ابتداء من الأزقة المغلقة والأزقة النافذة، والطرق الفرعية ثم الرئيسة.

ثم ظهرت معالم البناء والتركيب الوظيفي بشكل جلي في قرى السهل الجنوبي التي لوحظت في مخططات أريدو وأور والوركاء.

سابعاً: ومن عناصر الأصالة في المستقرات البشرية الأولى والتي تأصل وجودها في المدن:

هو تشييد الاستحكامات الدفاعية التي ظهرت بطرق شتى أولها أسلوب البناء الدفاعي المستحكم للوحدات السكنية الذي ظهر أولاً في نمط البيوت المتراصة[1] في العمارة العراقية القديمة، كما في نموذج بيوت قرية أم الدباغية في عصر حسونة ولا سيما بيوت (ط 4، 3)، حيث جرى تشكيل الوحدات المعمارية السكنية، وتوزيعها بشكل يضمن تكاتفها المركزي، وصلاتها الدائمة. إذ بنيت تلك الوحدات حول ساحة مكشوفة كبيرة نسبياً تتوزع على جانبيها عدد من الغرف بشكل "ا" تتقابل ذراعيها الطويلتين. عن جهتين، وتلتقي الأذرع الأخرى القصيرة من جهة أخرى فتبقى إحدى الجهات مفتوحة أمام الجميع. ومثل هذا

١- الأعظمي - محمد طه - مصدر سابق، ص 62.

النمط وجد في بيوت بارو تبة. ثم تطورت الاستحكامات على صعيد الوحدات السكنية من أنماط فردية إلى مركبة ظهرت بشكل أبنية دائرية انتشرت بشكل خاص في الجزء الشرقي من بلاد الرافدين عند حوض سد حمرين كنمط للمباني التي عثر عليها في مستوطنة تل الكبة، وقبلها يمكن أن تقع جميع مباني قرى عصر حلف تحت هذا النمط من الأبنية كونها دائرية ومقببة.

كذلك ظهرت وبشكل أصيل أنماط أخرى من الاستحكامات المرتبة بهيئة أبنية دائرية وقصور في القسم الجنوبي من العراق كالأبنية الدائرية التي ظهرت في الوركاء وقصور أريدو وجمدة نصر. ولكن تبقى الأسوار والحصون والخنادق أفضل الوسائل الدفاعية الدائمة والمحكمة البنيان حول الوحدات القروية، والحيوية الخاصة، أو حول المستوطن بشكل عام. ويأتي في طليعة أقدم الأسوار الأصيلة المحيطة بالمستوطنات السكنية في بلاد وادي الرافدين من موضع تل الصوان الذي يعود زمن تشييده إلى (ط 3) (نحو عام 5249)[1] ثم ظهرت الأسوار بعد ذلك في مستوطنات شرق بلاد الرافدين كسور جوخه مامي.

وفي قرى بلاد الرافدين القديمة حفرت الخنادق كواحدة من أهم الوسائل الدفاعية التي بدأ استخدامها بشكل أصيل أيضاً في مستوطن تل الصوان، ثم تواتر استخدامها تأصيلاً في المستوطنات السومرية، مثلما تأصل وجود السور الذي صار أهم عناصرها الوظيفية مثل سور أريدو والوركاء وأور.

ثامناً: أصالة شكل القرية العراقية:

الذي جاء في بادئ الأمر غير منتظم نتيجة تناثر الأبنية التي كان وجودها يعبر عن الضعف في التماسك الاجتماعي، وأساليب البناء البدائية، وعدم قدرتها على تحقيق أشكال منتظمة في الوحدات السكنية انعكس على شكل القرية كما في جرمو وشمشارة ومطاره. لكن سرعان ما ظهر الشكل البيضوي ثم ظهر الشكل الرباعي للقرية الذي اتخذته قرية تل الصوان، وصارت عليه أريدو في أدوارها الأخيرة عندما حدد شكلها بالسور الشبه مربع.

تاسعاً: أصالة الأساس الاقتصادي للقرى العراقية الأولى:

الذي ظل يلازم الزراعة وتربية الحيوانات إلى أن تحولت قرى السهل الجنوبي إلى مدن بفعل خاصية فائض الإنتاج الزراعي الذي دفع إلى المتاجرة به ونشوء قطاع التجارة والخدمات. إلا أن هذه الملازمة لقطاع الزراعة التي بدأت

١- جورج - جوني - عمارة الألف السادس - مصدر سابق ص 57-100 وتنقيبات أبو الصوف في تل الصوان 1968 ص 39.

ممارستها في قرية جرمو لم تمنع من ظهور نشاط معزز لاقتصاد القرى الأولى، بعد أن خرجت من حالة اكتفائها الذاتي. فقد شهدت قرية حسونة ممارسة الصناعات الفخارية كنشاط اقتصادي آخر يعتمد على المواد الأولية المحلية المصنعة ثم صناعة الآلات والأدوات الحجرية. وشهدت هذه القرية ممارسة أولى النشاطات التجارية (القيام بتجارة خارجية) المتمثلة بجلب حجراً الأويسدين والأحجار الكريمة من المناطق المتاخمة لبلاد الأناضول.

ومثل ذلك حدث في قرية السهل الجنوبي، حيث دفع النشاط الأول (الصناعات الفخارية) إلى اختراع الدولاب الخزفي. كما دفع النشاط الثاني (التجارة) إلى اختراع السفينة الشراعية التي كانت الأساس في تحول قرى السهل الجنوبي إلى طلائع المدن.

عناصر الأصالة والتأصيل
في المدن السومرية الطلائعية

رغم أن المدينة العراقية الطلائعية ظهرت أصيلة في الفكر العراقي القديم، وبشكل بالغ التعقيد، وكامل التنظيم صورها أدب وادي الرافدين على أنها لا يقدر على خلقها إلا الآلهة. وكانت تلك دلالة أصيلة على نشأة المدينة التي تعتمد على النظرة المثالية لإنسان العراق القديم، فالمدن لم تتكون بنمو بطيء كالقرية لغرض مطابقة ذلك مع ما تناظره في الكون[1]، لهذا فهي فكرة أصيلة لم يستطع ابتكارها سوى العقل السومري، وإن جميع الأدبيات المعاصرة في الاقتصاد والاجتماع الحضري والدراسات الجغرافية لم تكن إلا دراسات ونظريات تطورية لما أنتجه ذلك العقل قبل خمسة آلاف سنة.

ونستطيع هنا ذكر مجموعة من الخصائص والعناصر الحضرية التي أوجدها ذلك الفكر وتواتر وجودها في المدن اللاحقة، إضافة إلى ما تأصل عن القرية العراقية كالبيت والمعبد والسوق والمسجد والطريق والميناء. ومن هذه الخصائص والعناصر التي تدعم أصالة التكوين الحضري للمدن السومرية ما يلي:

أولاً: إن أول ما يدعم أصالة فكرة المدينة هو (الشكل والتركيب) الداخلي الذي أعطاه إياها الفكر التخطيطي السومري الذي جعل عناصر التكوين الحضري مؤلفة من ثلاث أجزاء هي:

- المنطقة المركزية (منطقة المعابد والقصور) التي تقابل اليوم المنطقة التقليدية في المدن الإسلامية وبشكل خاص المدن العربية، وإنها تقابل المنطقة (المركزية) في المدن المتروبولتانية الكبيرة. وهذين النموذجين دليل كاف على تأصيل فكرة المنطقة المركزية التي ابتكرها الفكر التخطيطي السومري.

- أما الجزء الثاني المتمثل بالنسيج الحضري فهو الذي يقابل اليوم باقي المناطق التي تحيط بالمناطق التقليدية للمدن. حيث تتوزع الاستخدامات الخاصة بالوظائف الاجتماعية والاقتصادية والسكنية والخدمات.

- بينما أصبحت منطقة القشرة (الأسوار) تقابل اليوم ما يعرف في المفهوم المورفولوجي باسم نطاق الحافة الذي يعد وجوده تأصيلاً لظاهرة الحافة الخارجية

1- lample. Paule. Urban planning in ancient cities 1976. p. 20.

للمدينة السومرية غير أن السور كان ثابتاً، وكانت له خصائصه العمرانية، أما نطاق الحافة اليوم فهو بحالة تغير دائمة تبعاً للمراحل المورفولوجية التي تمر فيها المدينة، حيث ظهر في كل مرحلة نطاقاً جديداً يمثل القشرة الخارجية للمدينة.

وفي كلا النموذجين (السومري أو الحديث) فإن حافات المدن أصبحت محاطة بالضواحي، مما يدل على أن نظرية الدوائر المركزية لبرجس تحمل روح الفكر السومري وقد طبقت قبل خمسة آلاف سنة.

ثانياً: ومما يدعم أصالة فكرة المدينة أن خطة المدينة town plan لم تكن بتوجيه من الحكومة المركزية (المعبد وسلطته) وإنما كانت نتيجة الشعور بأنها الأنسب، من حيث ربط أجزائها، ومناطقها الوظيفية، وسهولة الوصول إليها. كما أفرزتها حاجة المواطنين وعلاقاتهم، ومنظماتهم الدينية، ومعتقداتهم الفكرية رغم الصيغة القانونية التي اتخذتها تركيبة المدينة، وحمتها سلطة المعبد لذلك ظل نموذجاً أصيلاً سارت عليه العصور اللاحقة.

ثالثاً: على الرغم من طابع الأصالة الذي حملته خطط المدن السومرية الذي يتطابق مع نظرية الدوائر المركزية، فإن بعض عناصر التركيب الداخلي للمدن تعد تأصيلاً لما كان موجوداً في القرى النموذجية ولا سيما تلك التي تحولت إلى مدن مثل اريدو وأور والوركاء. لذلك صار مخطط تلك المدن يعكس ما هو مؤصلاً عن القرية (كالمعبد) الذي تطور بناؤه وعمارته حتى وصل إلى الشكل الزقوري. (والسور) الذي صار مدعماً بالأبراج وبكل مفردات المتانة والقدرة الدفاعية، واستمر وقوع الموانئ على الأنهار القريبة من سور المدينة. بينما يمكن حصر العناصر الأصيلة التي دخلت على تركيب المدينة بالآتي:

1- شكل النظام العفوي ذو التخطيط غير المنتظم في المدن السومرية الطلائعية عنصر أصالة من نظام توزيع الأحياء السكنية التي ظهرت فكرتها جلياً في المدينة العربية والإسلامية التقليدية، والتي استمر وجودها في مدن العراق (كبغداد) إلى فترات لاحقة (مطلع العشرينات) من هذا القرن.

2- ومن العناصر الأصيلة التي يمكن إدراكها ضمن النسيج الحضري للمدن السومرية وضوح فكرة الجيرة السكنية والتي عبر عنها علماء الآثار بالحارة، كما هي (حارة المعابد) في أريدو وحارة (أي أنا) و(كولاب) في الوركاء التي كان لإندماجهما الأثر الكبير في تكوين قطاع sector المنطقة المركزية. وقبل ذلك ظهرت فكرة الحي الذي عبر عنه وجود الحي المقدس في أور، ولم تقتصر هذه الفكرة على المناطق الدينية فحسب، بل على المنطقة السكنية فلم تكن الصورة التي كونها وولي في مدينة أور إلا شكلاً لذلك الحي السكني. واليوم إذا كانت تلك المسميات هي الأساس في تكوين التدرجات الهرمية للبناء الوظيفي في المدن فوحدة الجيرة هي أصغر رقعة من استعمالات أرض تظهر فيها الاستعمالات المختلفة للأرض ثم وحدتي جيرة فأكثر تؤلف الحي السكني الذي له استعمالات

أوسع، وخدمات أكبر من وحدة الجيرة، حتى إذا ما التقى حيين أو أكثر كوناً قطاعاً، ومن مجموعة القطاعات تكون مساحة الأرض الحضرية. لذلك فإن هذا التدرج وجد مكانه في المدن السومرية قبل خمسة آلاف سنة.

3- على الرغم من وضوح نظام الأزقة والمسالك، والطرق العامة، والفرعية النافذة والمغلقة في المستوطنات القروية المبكرة مثل تل الصوان وقبلها الأربجية. إلا أن نظام الشوارع الرئيسة والثانوية مع وجود الطرق والمسالك المفتوحة والمغلقة بين الأحياء السكنية كانت أصيلة التوجه بالشكل الذي عرفته المدن السومرية مع ما تأصل من خطط القرى الجنوبية نفسها، حيث ضم مخطط النسيج الحضري السكني في أور من فترة لارسا كل تلك الأنماط، ورغم اختفائها في نظام الشوارع والطرق في المدن العربية والإسلامية ليبقى نمط المسالك والأزقة فيها مع وجود الطرق الضيقة النافذة والمغلقة. إلا أن النظام السومري للطرق والشوارع الذي عرفته المدن السومرية قد عاد وتأصل في المدن العربية الإسلامية، واستمر فيها حتى مطلع الأربعينات من هذا القرن ولا سيما في بغداد ودمشق والقيروان وفاس وغيرها.

رابعاً: ومن بين عناصر البناء الوظيفي الحضري في المدينة ظهور القصر الذي برز إلى جانب المعبد (مقر السلطة الدينية)، والذي أصبح مقر لصاحب السلطة المدنية والعسكرية لاحقاً بعد انفصال تلك السلطتين في عصر فجر السلالات. وقد دل بناء القصور على أن لدى السومريين فكر معين عن طريق تعدد أجنحتها ونوع الاستعمالات لفضاءاتها.

وفي تلك القصور (كما في قصر اريدو الشمالي) ظهرت مجموعة من العناصر البنائية تمثلت في:

أ- ظهور الفناءات الكبيرة والمتعددة التي تطل عليها مداخل الفضاءات الأخرى.

ب- ظهور المعالجات البيئية داخل أبنية تلك القصور تمثلت بوجود الدهاليز التي استخدمت للمحافظة على درجة حرارة الغرف صيفاً وشتاءً في ظل التقلبات الجوية، والأعاصير الرملية التي كانت تعصف على بعض المدن السومرية ولا سيما أريدو، حيث وجدت مثل تلك الدهاليز في قصرها الكبير الشمالي، إضافة إلى ظهور الحمامات ومجاري تصريف المياه.

ج- استخدام نوعاً خاصاً من اللبن في البناء كان أحد وجهيه محدب والوجه الثاني مستو. وقد تأصل استخدام هذه المادة في تشييد أبنية المدن السومرية مدة من الزمن تجاوزت ثلاثة قرون دون أن يحدثوا تبديلاً مهماً على شكل (اللبن الذي عرف بالريمش). وقد تأصل وجود القصر إلى فترات لاحقة حتى العهدين الفرثي والسلوقي التي جاءت نهايتهما على يد المسلمين الذين تابعوا تأصيل ظاهرة

القصر الذي ظهر إلى جانب المسجد بدار الإمارة (كما كان القصر بجانب المعبد). واليوم تسمى مثل تلك القصور بالقصر الملكي أو الجمهوري الذي ربما يكون مقراً لعمل الحكام، إضافة إلى ما خصص من أجنحة لسكن عائلة.

خامساً: وإذا كان نظام البناء للوحدة السكنية قد ورثته المدينة عن فكرة التصميم الأولى لها في القرية الناجحة (التي بدأت بحسونة والأربجية ثم قرى الجنوب) المكونة من الفناء الداخلي للدار الذي يتصل بالخارج عن طريق الممر (المجاز) وعلى أركانه كانت تتوزع غرف المعيشة. إلا أن مجموعة من العناصر الأصيلة دخلت على فكرته الأولى والتي ظلت تتأصل في المدن العراقية، ومنها بغداد حتى فترة الأربعينات والخمسينات من هذا القرن ممثلة في:

أ- ظهور حالة التعدد في الطوابق المنزلية التي وصل عددها إلى اثنين وأحياناً ثلاثة.

ب- ظهور الشرفة التي تدور حول الفناء الوسطي (الحوش) من الأعلى عند سقف الطابق الأرضي محمولة على أربعة أعمدة (الدلكات) وترتفع جوانبها المطلة على الحوش نحو الأعلى حتى سقف الطابق الأول مشكلاً الشرفة المطلة على الفناء المركزي.

ج- تنفيذ السقف النهائي للمنزل بشكل مائل إلى الداخل لضمان تصريف مياه الأمطار إلى الفناء الداخلي.

د- ظهور مكان دورة المياه تحت السلم المرتقي من الطابق الأرضي إلى الطابق الأول.

هـ- وظلت أبعاد الوحدات السكنية بشكل عام التي تظهر أصيلة في فضاءات الوحدات السكنية السومرية وهي قائمة حتى يومنا هذا حيث تراوحت أطوال جبهة الدار بين 26-32م وأبعاد الغرف بين 4 8 و 3 5م حيث كانت منازل أريدو ومعظم منازل أور بهذه القياسات.

سادساً: إذا كانت العمارة الدينية قد شهدت نهجاً أصيلاً في تطور بنائها الذي أوصلها إلى حد البناء الزقوري المدرج فإن هذا النهج الأصيل من العمارة السومرية ترك عنصرين بات تأصلها مستمر إلى فترات متأخرة ولازالت مستمرة هي:

1- تشييد البارشنون[1] المشابه للبناء الزقوري، والذي استمر مدة طويلة (قبل اكتشاف البناء الزقوري) ينسب إلى المهندسين والمعماريين الإغريق الذين شيدوه بعد ألفي عام من عمارة الزقورات.

١- البارشنون هو معبد الآلهة في اثينا على الاكروبولس. يعود تاريخه إلى 438ق.م (جورج رو. مصدر سابق ص 225).

2- أبنية المشاهد والأضرحة الدينية التي صارت تقام على أضرحة الأئمة ورجال الدين بهيئة مرقد وسط فناء مقبب تعلوه المنائر، ويشبه هيكلها البناء الزقوري، ثم ذلك الفناء والمساحة التي كانت تحيط بهذا الهيكل أصبحت تقابل ما يعرف اليوم بصحن المشهد، وحوله ذلك السور الذي اكتظ بالغرف والأواوين التي خصص بعضها للمقيمين على خدمة المرقد، وشؤونه الدينية بينما تركت الغرف الأخرى والأواوين للزائرين المقيمين والعابرين.

سابعاً: ظهور كثير من المعالجات البيئية الأصيلة التي سارت جنباً إلى جنب مع ما ورثة المدن السومرية من القرى الجنوبية المتمثلة في:

1- تأصل استمرار توجه المدن السومرية بشكل مواز لاتجاه جريان نهري دجلة والفرات بحكم العلاقة الوثيقة بين مواقع المستوطنات، وانسياب هذين النهرين اللذين كانا الأساس في حياة سكان بلاد وادي النهرين.

2- تأصل اتخاذ معظم الأبنية والوحدات المعمارية للمدن السومرية مبدأ توجه زواياها نحو الاتجاهات الرئيسة الأربعة كضرورة مناخية لمواجهة الرياح الشمالية الغربية السائدة، وتحقيق مستوى متوازن من أشعة الشمس لجميع واجهات المبنى، إضافة إلى القيمة الرمزية والدينية التي كان يعتقد تحقيقها عن طريق ارتباط المبنى بهذا التوجه للمحاور الكونية التي تثمل نقطة تقاطعها الاتصال بالسماء.

3- أظهرت نشأت وصيرورة النسيج العضوي المتضام حالة أصيلة من المعالجات البيئية التي صارت تقلل من شدة الحرارة، والجفاف صيفاً، وأشعة الشمس المباشرة تمثلت بحالة الظلال الذي تكونه طريقة توزيع وانتشار الأزقة، بالإضافة إلى دورها في تقليل أثر الرياح المحلية المحملة بالأتربة والغبار والتي تهب من جهة الصحراء الغربية والجنوبية. وقد تأصل مثل هذا النهج في مدننا العربية التقليدية، واستمر فيها حتى مطلع الأربعينات من هذا القرن.

أما العناصر الأصيلة التي أدخلت على بناء الوحدات السكنية كضرورة لمعالجات بيئية، وتوفر للإنسان الخصوصية التي تكسبه الراحة والاطمئنان فقد تمثلت في:

أ- انغلاق الوحدات السكنية نحو الخارج وانفتاحها إلى الداخل نحو الفناء الداخلي، والتصاق الوحدات السكنية ببعضها، حيث أدى هذا الوضع إلى تقليل تعرض الواجهات إلى أشعة الشمس. ولقد ظل مثل هذا التقليد في بناء الوحدات السكنية وأحيائها إلى حقبة المدن العربية التقليدية، بل وحتى الأربعينيات من هذا القرن.

ب- امتداد سقوف الطابق الأرضي إلى داخل الفناء لتقليل المساحة المعرضة منه إلى الشمس صيفاً والمطر شتاءً، إضافة إلى أن الفناء نفسه أقيمت على جوانبه الشرفة التي يمكن أن تعمل كالشناشيل العصرية.

ج- ظهور الدهاليز في بعض البيوت لمعالجة درجات الحرارة صيفاً وشتاءً، والتي صارت تقابل السراديب البغدادية التي استمر وجودها إلى مطلع الستينات قبل أن يستعاض عنها بالملاجئ المنزلية.

ثامناً: عبرت العلاقات الإقليمية بين المدينة السومرية وظهيرها المحيط وعن طريق النشاط الاقتصادي المتبادل عن المعنى الأصيل للمدن السومرية كأماكن مركزية. لذلك فإن النظرية التي جاء بها كرستالر وطورها الآخرون، والتي تدرس المدن المعاصرة كأماكن مركزية لم يكن وجودها إلا تأصيلاً للنظرة السومرية الأصيلة لمعنى المدينة الأم وعلاقتها بظهيرها الزراعي. وإذا كانت هذه النظرية الحديثة والتعديلات التي طرأت عليها قد أتت باثنتي عشرة فرضية، فإن الدراسة التي أعدها روبرت ادمز جسدت مثل تلك الفرضيات التي أوضحت علاقة مدينة الوركاء بظهيرها الإقليمي، وهي أقرب ما تكون إلى مخطط هيكلي stractuer plan لإقليم الوركاء القديم.

تاسعاً: بعد الفهم المورفولوجي لمدن اليوم الروح الحقيقية المعبرة عن أصالة الترابط الجدلي بين الوظيفة والشكل الذي استوعبته عناصر خطة المدينة والنسيج المعماري، والتي أظهرتها استعمالات الأرض في المدن السومرية.

عاشراً: ظهرت الصورة الأصلية لفن تخطيط المدن التي تعطي السبق الأكيد للعراقيين القدماء الذين اهتموا ببناء المدن منذ عصور ما قبل التاريخ ومطلع فجره، والدليل على ذلك عثور المنقبين على مخططات تقابل اليوم ما يعرف بتصاميم أساسية، master plan ومن بينها خارطة نفر السومرية التي استمر وجودها حتى العصر البابلي. وقد رسمت تلك الخارطة على لوح طيني كبير. وقد رسم عليه التصميم الأساسي لمدينة نفر في جزئها الشرقي القديم، حيث ظهر عليه اسم المدينة، واسم النهر، وأسماء القنوات، والجداول التي تمر بها بعض المعالم الرئيسة مثل معبد (أي - اكور) والمخازن، والسور والبوابات والخنادق المحيطة بالسور (شكل 58). وقد شكلت هذه الخارطة الدليل الذي اعتمدته البعثة التنقيبية التي عملت في المدينة.

شـــكل 58: خارطة التصميم الأســـاس لمدينة نفر
قبـــل ما يزيد على ثلاثة آلاف ســـنة Master plan of
Nebur (موسوعة حضارة العراق 1985)